الفصل الثاني

موضوعات رسائل عصر العمارنة ومحتوياتها

أولاً: العثور على الرسائل الدبلوماسية

احتل موضوع هذه الرسائل مكانة بارزة في تاريخ الشرق العربي القديم. وعلى الرغم من أن الكشف عنها جاء بمحض المصادفة إلا أنها أوضحت طبيعة العلاقات القائمة بين ممالك العالم العربي وآفاق الفكر السياسي وأساليب التخاطب الدولي آنذاك.

في جانب من عصر مصر الإمبراطوري احتل الملك إخناتون مكانة الطليعي ليعلن إلغاء آلهة مصر التقليدية وليتوجه إلى عبادة قرص الشمس أو حقيقتها. ولم يكتف هذا الملك بثورته على الآلهة الوثنية بل قام بتغيير حتى اسمه من "امنوفيس الرابع" إلى إخناتون (أخت آتون) بمعنى الشمس راضية[٩]. ولم يكتف العاهل الجديد بذلك بل غيَّر عاصمته مُتَّخذاً مكاناً جديداً لها على الشاطئ الشرقي من نهر النيل في الطرف الشمالي من "أسيوط" بين "ملوي" و"ديروط"[١٠]. وعلى الرغم من أن أسباب هذه الثورة ودوافعها الشخصية غير واضحة، إلا أن الملك الشاب الجديد كان يطمح بإله عالمي بدلاً من محدودية آلهته المحلية السابقة التي ربما تعطيه بُعداً عالمياً في السيطرة على العالم القديم، إذ لا يمكن أن يأتي شيء من لا شيء. على أي حال، يمكن القول بأن ثورة إخناتون تشابه من بعض الوجوه الثورة التي قام بها العاهل العاربي الملك "سرجون" الأكادي قبل ٤٣٥٠ عاماً.

وعلى الرغم من أن أي مصدر لم يبحث بشكل واضح أسباب الثورة العاربية

الأكادية، إلا أنه يمكن القول بأن عمل "سرجون" لم يكن آنياً أو لمجرد ما نُقل عنه بأن تسلُّمه السلطة كان بحب الإلهة "عشتار" له، لأن هذا التبرير يهم عامة الناس في حينه لا الباحث اليوم.

إن ما يمكن قوله في الثورتين "السرجونية" و"الإخناتونية" إنهما كانتا خاضعتين لتنظيم سياسي مُنَسَّق ولم يكن بمفرد شخص واحد إن يبث مقوماته. على أي حال إن اسم الأكاديين غير معروف وكذا عاصمتهم. إلا أنه من الواضح أن اسم البستاني الذي ترعرع عنده سرجون كان يُدعى "آكّي" لذلك يبدو محتملاً أن اسم الأكاديين إنما هو انتساب إلى مُلَقِّن "سرجون" معنى الثورة. ومن الجلي أن مقومات الثورة "السرجونية" كانت واضحة كتنظيم حزبي، كأقدم تنظيم للأحزاب في العالم، فقد أصرَّ "سرجون" على مد فتوحاته إلى إيران وبلاد الأناضول وسورية بعد توحيده العراق واحدث ثورة في الإدارة والفن. وهذا عين ما يمكن قوله في ثورة "إخناتون" على الرغم من الفاصلة الزمنية بين الملكين ووجود اختلافات واضحة في عين الوقت بين منهجيهما. لقد أطلق إخناتون على عاصمته الجديدة اسماً قريباً من اسمه "خو-اين- اتن"[١١] تمجيداً لإله الشمس.

على أي حال، نحن في دراستنا للموضوع لا نطلق اسم الرسائل المعثور عليها في هذه المدينة طبقاً لاسمها القديم، بل "تل العمارنة" نسبة إلى قرية "بني عامر" ففي هذا المكان عثر جماعة من أهالي قرية "الحاج قنديل" على نحو ستمئة رقيم حينما كانوا يحفرون أسس مباني عاصمة "إخناتون". وقد جاء هذا الكشف المهم قبيل نهاية القرن الماضي[١٢].

إن الطريقة السهلة التي عثر فيها أهالي القرية على ألواح الطين لم تستمر لتعرفنا على ماهيتها فقد أتت الأحكام عفوية على تلك الألواح الطينية، حتى أن البعض عدها نقوشاً مزورة بقصد ترويجها بين الأجانب، وبذا تكاد تشبه قصة نصوص "العمارنة" أمر العثور على رسوم كهوف قبل التاريخ في جنوب إسبانيا التي عثر عليها بمحض المصادفة في نهاية القرن التاسع عشر أيضاً إلا أنها لجمالها وروعة تمثيل بعضها عدها الانثروبولوجيون مزوَّرة آنذاك.

تمدنا الكتب التي ألفت بعد استخراج الرقم بمزيد من التفاصيل، ومما قيل إنها انتقلت إلى تجار الآثار في "اخيم" و"الأقصر" و"القاهرة" بعد الكشف عنها، وإن مدير

مصلحة الآثار المصرية السيد "جريبو" والسيد "نورمان" مدير المدرسة الفرنسية بالقاهرة سمعا بالعثور عليها، اللذان قاما بدورهما بشراء ما تَيسَّر لهما وارسالهما إلى قارئي المسماريات "اوبير" "بباريس" و"سايس" في لندن، فلم يجد هذان العالمان مناصاً من القول بأن الكتابة بابلية.

ولكن الخبر لم يكد يذاع حتى قوبل بالدهشة في جميع الدوائر العلمية، ثم تحولت الدهشة إلى ريبة، والريبة إلى سخرية وإنكار[١٣]. وهذا ما يخبرنا به الكاتب المصري "عبد القادر حمزة" الذي خص فصلاً مهماً في كتابه عن هذا الموضوع. إلا أن باحث الآثار المصرية "فلندز بتري" يخبرنا أن "اوبير" نفسه عَدَّها مزوَّرة[١٤]. علماً بأن "بتري" ألَّف كتاباً في نهاية القرن الماضي عن رقم الطين المكتشفة. ومما أشار إليه أن كميات نُقلت إلى "الأقصر" باكياس مما أدّى إلى تحويل معظمها إلى كسر في الطريق، ثم أشار إلى نقلها إلى المتحف البريطاني وبرلين وسانت بطرسبورغ وباريس ومتحف القاهرة، إضافة إلى وقوع بعضها بحوزة أشخاص[١٥].

إن الألواح الستمئة التي عثر عليها الفلاحون جعلت الباحثين يشكّون في أمر استنتاجهم في أن الألواح مزوَّرة لأن من يقم بهذا العمل الشاق لا يصل إلى تلك الكمية من الألواح[١٦]. ومما تخبرنا به المصادر أن أول من قرأ أسماء ملوك بابليين وحكاماً سوريين كان قارئ المسماريات "سايس" وأكمل تلك القائمة "أدولف ارمان" كما قام عدد من الباحثين[١٧] بطبع الكتابات ونشرها لتكون بمتناول الباحثين في العالم[١٨] وكان من نتيجة ذلك قيام قارئ المسماريات "هاليفي" بمحاولة لقراءة مجموعة من الرُّقم تخللها النقص والخلل، إلا أنه نسب إليه التعريف بأن تلك الرقم إنما كانت رسائل دبلوماسية متبادلة بين حكام وملوك الشرق[١٩]. أما كتاب المتحف البريطاني الصادر عن الألواح المحفوظة لديه عام ١٨٩٢ فلم يُشر إلى تفاصيل أحداث العثور على الألواح، إلا أننا نفهم من كتابهم الذي تولى "بيزولد" كتابته أن الرقُم كانت موزَّعة بين عدد من الأطراف حصل المتحف البريطاني منها على (٨٢) في حين كانت حُصَّة متحف برلين (١٦٠، و٦٠) لمتحف الجيزة، وأن عدداً قليلاً منها كان بحوزة أشخاص[٢٠].

بعد الكشف عن محتويات الرسائل أمكن معرفة الجهات المرسلة لها واليها من

ذلك ست رسائل من ملك بابل، وتسع من ملك "الاشيا" (قبرص)، أربع من ملك "ميتاني" ست وأربعون من "ريب آود" أحد الحكام في سورية ونحو مئة رسالة من حاكم كان بمدينة القدس هو "آراد خيباً، وحاكم في سورية هو "ازيرو". كانت الرسائل المذكورة مُرسلة إلى اثنين من ملوك مصر "امنوفيس" الثالث وابنه "إخناتون". أما الفترة التي غطّتها الكتابات فيه حوالي النصف قرن[٢١]. على أي حال إن تلك الرقم لم تكتب فقط في عاصمة "إخناتون" وإنما نقلت كميات من العاصمة السابقة[٢٢] إلى مكان يبدو أنه كان بمثابة محفوظات "لوزارة الخارجية" المصرية[٢٣]، إن صح تعبير البعض.

ثانياً: مواصفات الرسائل

بعد أن عدّ اصحاب الاختصاص رُقُم "العمارنة" بمثابة رسائل حقيقية بكل معنى الكلمة شرعوا بوضع العديد من الأبحاث لاستقصاء ما غمض منها. وقبل البدء بمعرفة ما تتضمنه بعض الرسائل لا بد من إيضاح مواصفات هذه الرقم من حيث شكلها وأسلوب كتابتها[٢٤]. وعلى أي حال، يمكن وبصورة عامة وضع تلك المواصفات بالآتي:

إن جميع الألواح عملت من الطين الذي يتراوح لونه بين البني الفاتح إلى الغامق ومن اللون اللحمي إلى لون الطابوق الأحمر، وبما أن تلك الرسائل جاءت من مصادر مختلفة فإن طبيعة الطينة قد تشير إلى الأقطار التي أتت منها.

أما من حيث الشكل فإن معظمها مستطيل المقطع الطولي، في حين كان القليل منها بيضوياً. أما الوجهان الواسعان فقد يكونا مستويين أو فيهما تحدب.

أما أحجام تلك الرسائل فكان ينبغي أن يراعى فيه سهولة النقل وفيها من المساحة ما يكفي موضوع الرسالة: لذلك جاءت ألواح الطين المحفوظة في المتحف البريطاني بطول نحو تسعة إنشات وعرض يتراوح بين $4\frac{7}{8}$ إلى $2\frac{1}{8}$ إنش. أما السمك فحوالي $1\frac{11}{16}$ إنش. وفيما يتعلق بأطول نص في لوح واحد فقد بلغت سطورة ثمانية وتسعين سطراً، في حين ضم أصغرها عشرة سطور.

وهناك نقطة مهمة تتعلق باللغة التي كتب بها.

لعل اختيار لغة للتخاطب العالمي أصعب المهمات، إذ ينبغي أن يُراعى فيها انتشارها الثقافي، وأن تكون مفرداتها في متناول الأقطار التي تتبنّى التخاطب بها من بلاد الأناضول وسورية والعراق ومصر.

وكما عوَّدتنا الأرض العربية المعطاء بأن تُعَمِّق أواصر القربى بتعميم إحدى لهجاتها المختارة بغية أن تكون واسطة اتصال بينها، فالآرامية كانت لغة التخاطب لدول قبل الإسلام حتى داخل بلاد فارس والصين وأوروبة. أما عبر العصور الإسلامية فإن لغتنا العربية الحالية كانت واسطة الاتصال الثقافي والروحي مع أرجاء العالم. وفي عصر "العمارنة" كانت لغة المراسلات الدولية الأكادية[٢٥] أو الآشورية-البابلية[٢٦]، أحد فروع لغتنا العاربية الشرقية القديمة.

على أي حال، أن وجود رسائل بلغة أجنبية لدى البعض يُحتِّم عليه إيجاد كتبة ومحررين بتلك اللغة، اضافة إلى لغة الملك أو الحاكم المحلية كالمصرية القديمة والحثِّية، وفي هذه الحالة تكون هناك احتمالات لاستيعاب الكاتب ما يُملى عليه، فهل كان آشورياً أو بابلياً درس المصرية أو بالعكس؟.

بعد نصف قرن من الكشف على الرسائل الدبلوماسية عُثر على ثمانية ألواح أوضحت جانباً آخر للموضوع. لقد حوت المجموعة الجديدة على ستة تمارين مدرسية لطلبة "الاكاديمية" المصرية المحلية كانوا يدرسون اللغة البابلية العالمية[٢٧]. وبصورة عامة يشير "سيريل" إلى أن تلك الوثائق كُتبت بعد تلقين غير دقيق من جيل إلى آخر مما أدى تحولها إلى لغة عالمية Valo Puk، وهي اللغة الاصطلاحية أو المبسَّطة المفردات والنحو ليسهل التفاهم بها Jargon وأشار كذلك إلى أن من يريد دراسة تلك الرسائل عليه أن لا يُلمَّ بالأكادية أو البابلية فحسب، بل إن معرفة لغة أخرى كانت سائدة في رأس "شمرة" بسورية (أوغاريت) وبرأيه أن هذا الأمر يجعل قلة من المختصين الذين بمقدورهم ترجمة النصوص بدقة "كما أن صعوبة تأويل النصوص هي بضخامة المشاكلات الناجمة عن الترجمة"[٢٨].

ومن الأمور التي تنبغي الإشارة إليها أن الرسائل منذ بداية الكشف عنها حوت معجماً جرى تقسيمه إلى ثلاثة أجزاء متساوية، حوى الأول منها كلمات باللغة المصرية، والثانية التي أمامها بالبابلية، في حين ضَمَّ الثالث كيفية نُطق الكلمة البابلية مكتوبة بالهيروغلفية[٢٩]. ومما تشير إليه المصادر أن أحد الألواح حمل هامشاً يشير إلى أن ملك مصر هو الذي أمر بوضع المعجم[٣٠].

ومما أمكن تتبعه في أحد الألواح ختم حمل اسمين هما :"تيتو - نو" و"شا ماش

- نيكي" وقد افترض الباحثون أن الاسم الأول مصرياً والثاني بابلياً[٣١]، هذا فضلاً عن اسم شخص آخر مكتوب بالحبر باللغة المصرية أطلق على نفسه "الكاتب الملكي رع ابييني" الذي من المحتمل أن يكون أميراً لدار المحفوظات وبمعيته الشخصان المذكوران آنفاً[٣٢]. ومن الواضح أن وجود شخص بابلي في مصر بمثابة كاتب هو لتصحيح ما يكتب ومساعدة الكتبة المصريين في وضع الرسائل، وكان ينبغي له معرفة لغة مصر.

عند التطرق إلى مادة الرسائل المكتشفة من المفيد معرفة الأسلوب الذي كُتبت به العلامات المسمارية والشكل العام لها، لا سيَّما وأن الخط المسماري كان يختلف نسبياً بمرور الوقت بما يطرأ عليه من تبسيط أو إضافة أو ضوابط عديدة في التنسيق أو ربما قلة العناية. وفيما يخص رسائل العمارنة يمكن أن نضع المواصفات العامة الكتابية بما يلي:

أ- إن الخط المسماري المستعمل يشبه إلى حد بعيد الخط البابلي الوسيط، إلا أنه مع ذلك يحوي خصائص لا تُماثل ما نراه في أي فترة، بل إنه غريب حتى عن الشكل المألوف في نينوى وآشور. واننا عندما نقارنها مع الكتابات الأنيقة والمعتنى بها لملوك الآشوريين نرى أنها لم تُكتب بأيدي حذاق من الكتبة. ومما يلاحظ أن الكتابة على الرُقُم الكبيرة تكون حرة، وعلى بعض الرّقُم الصغيرة مضطربة.

ب- ينهي الكاتب في النصوص البابلية والآشورية السطر بكتابته كاملاً، في حين يشيع في نصوص العمارنة إكمال الكلمة في نهاية السطر، وفي بعض الأمثلة توضع باقي الكلمة في بداية السطر الثاني، إلا أنها تُكتب على العموم تحت القسم الأول من الكلمة ويمكن تمييزها بوضع العلامة المسمارية أو قبلها وللحصول على درجة أعلى من الضبط.

جرت محاولة لاستعمال النقط الفاصلة باستخدام اللون الأحمر. وهي مأخوذة عن تقاليد عراقية قديمة موروثة.

ج- من المعروف أن الخط المسماري مقطعي ويمكن كتابة الكلمات إما بمقاطع أو برمز واحد يدل على الكلمة Ideograph أي دون اللجوء إلى المقاطع بالاعتماد على صيغ مصطلحة موغلة في القدم بدأت منذ الشكل الصوري للكتابة في عديد من الأمثلة. ومما لوحظ وجود حذف في بعض المقاطع، أو أنها كتبت دون عناية غالباً[٣٣].

د- بما أن العلامة الدالَّة أو الشارحة والموضحة لاسم determinative قد لا تكون مفهومة لدى بعض الكتبة، ما دامت اصطلاحية لذاتها، فقد اعتمد كاتب الرسائل الدبلوماسية أسلوباً يشرحها أو يعيد كتابتها بأسلوب مقطعي، إلا أنه بغية التمييز بينها ومقاطع أخرى يقوم بوضع مسمار أو مسمارين مائلين للفصل بين الكلمة الاصطلاحية والنهجي المقطعي لها مثلاً:

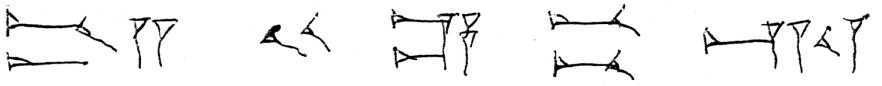

ومن الواضح أن المقطع (اش) يقرأ لدى السومري بما يعني "تراب" ويلفظ من الأكادي أو البابلي ليعني تراب ولكنه يلفظ باللفظ الأكادي وهو ما فسرته المقاطع الثلاثة (أي-بي-ري)، بما يقابل كلمة "غبار" بعربيتنا.

هـ- لم يقتصر شرح العلامة الموضحة لكلمة ما بالأكادية، بل ورد أيضاً إيضاح لفظها بالكنعانية، وكما هو الحال في السابق يفصل العلامة الموضحة عن المقاطع التي تبين لفظها بمسمار مائل، مثل:

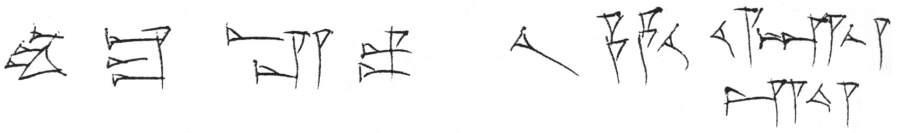

و- إيضاح معنى كلمات آشورية بما يماثلها باللغة الكنعانية، ويتم الفصل بين الكلمتين بمسمار أو مائل أيضاً مثل:

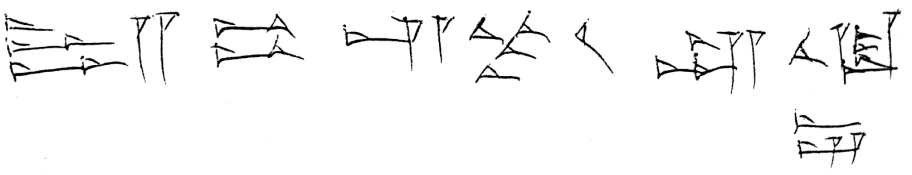

(زو-كي-ني)

(زو-كي-ني). وتعني الكلمة "هاكم".

لي-آخ-شو-أش-مي

يا- أز-كو-أر-مي

بمعنى "دعه يتأملني (أو يذكرني).

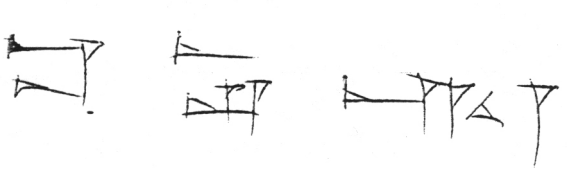

(ني- ري)

والكلمة (نيري) الآشورية عينها "نير" بالعربية

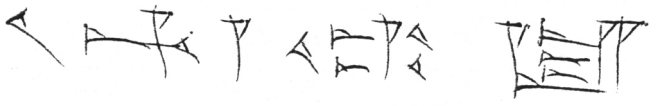

(خو-أل-لو)

إلا أنه قد ترد ثلاث كلمات آشورية تتم ترجمتها في عين النص إلى الكنعانية:

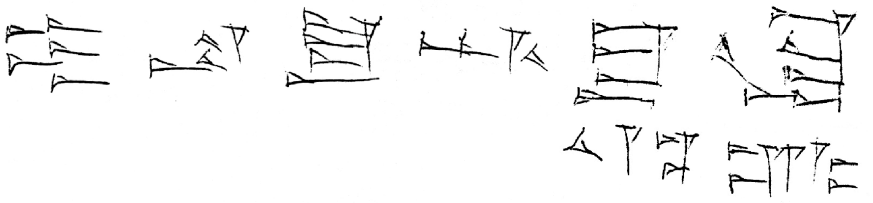

(لا-دي-او) (إ-نا- قات-تي-شو)

ويعني "في يديه".

ز- لقد جرى في الكتابات الصورية والمسمارية المشتقّة عنها استعمال جملة علامات للتعبير عن شيء مصنوع من مادة معينة، أو في حالة المثنى والجمع. وفي ألواح العمارنة هناك استخدامات غير سليمة لتلك الأدوات أو بعبارة أخرى جرى فيها بعض التصرف ضمن حالات غير مألوفة في الكتابات العراقية المسمارية. وعلى سبيل المثال تجمع الاسماء باستخدام العلامات و أو عن طريق

تخفيف العلامة الدالة كما هو مُتّبع إلا أننا نرى في تلك الرسائل استخدام 𒀀𒀀 أو بتضعيف العلامة زائداً إلا أنه غالباً ما يتوضح الضمير بعد علامة الجمع. أما في رسائل العمارنة فإن الضمائر تأتي قبلها أحياناً. ومن المعروف أن العلامات المذكورة عراقية تقليدية متوارثة.

وفضلاً عن ذلك هناك أمران من المفيد إيضاحهما الأول يتعلق باستخدام مسمارين عموديين إلى جانب بعضهما للتعبير عن المثنى مثل العلامة التي تشير إلى العين واللتعبير عن العينين 𒄴𒄴 وللقدم 𒄴 في حين يكتب قدمان بهذه الصيغة وهو الأسلوب المتّبع في المسمارية الاعتيادية. إلا أن رسائل العمارنة تضع المسمارين الدالين على المثنّى قبل الكلمة.

أما الأمر الثاني فيخص العلامة الدالة المركَّبة وقد استعمل كاتب "العمارنة" طريقة قلب العلامة مثل:

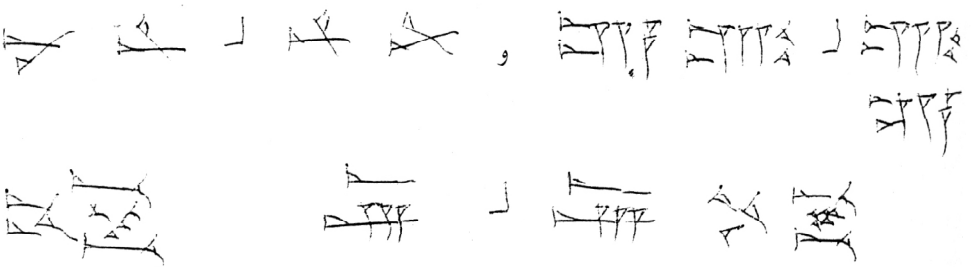

وهكذا. علماً بأن خاصية القلب مألوفة في لهجاتنا.

إن ما ينبغي الإشارة إليه أن الرسائل المكتشفة هي ليست نُسخاً ثانية يحتفظ بما يرسله البلاط المصري منها، بل إن معظمها مرسل من البلاط البابلي والآشوري والميتاني والحثي إضافة إلى المناطق التابعة للبلاط المصري في سورية وفلسطين. وعليه فإن الرسائل المرسلة بالمواصفات التي سبق ذكرها تشملها جميعاً. وعلى الرغم من أن اللغة التي كُتِبت بها هي العراقية العاربية القديمة (الأكادية- البابلية) إلا أن المواصفات المقترحة لها ولكي تسمى لغة تخاطب عالمي قد أخذ بها البلاط العراقي نفسه وهذا يعني أن الكتبة الذين كانوا يدوِّنون بالمسمارية العراقية في قطرنا قد وضعوا نصب أعينهم التحوير المطلوب.

إن الموضوع المشار إليه على جانب كبير من الأهمية لأن أخبار محرري رسائل في أقاليم الوطن العربي يعني أن المسؤولين اتخذوا خطوات مسبقة لإرسال الرسائل تمثَّلت في أبسط مفاهيمها تهيئة اجتماعات للمختصين بالخط المسماري واللغة البابلية إلى جانب ما كان سائداً من اللهجات العاربية القديمة في سورية كالكنعانية. ومن ثم فإن كاتب اللغة الاصطلاحية الدبلوماسية، إن صح التعبير، ينبغي له أن يُلم بالعديد من المواصفات، ومن هنا جاء عدم هضم المواصفات المطلوبة في الخط المسماري العراقي التقليدي. وبعبارة أخرى فإن المدرسة التي نشأت في العالم القديم وتوزَّع محرروها هنا وهناك كانوا يتَّبعون مؤسسة واحدة، أول الأمر على الاقل، إلا أنه مما يبدو أن مدارس إقليمية نشأت فيما بعد كما مرَّ بنا في رسائل مصر التي حرَّرها الطلبة بمصر للتمرين عليها بمواصفات مماثلة. وعليه فإن إنشاء المؤسسة "اللغوية الاصطلاحية" عملية مهمة سبقتها رسائل متبادلة وضرورات مُلِحَّة لإقامتها، وربما سيقدم لنا التاريخ بعضاً منها لإلقاء الضوء على كيفية تأسيسها.